الفصل الثالث

الظروف المحيطة برحلة الحج الجزائرية

أولاً: وسائل النقل والمواصلات

1- وسائل النقل المعتمدة من طرف الحاج الجزائري

2- ظروف نقل حجاج الجزائر

ثانيا: واقع الوضع الصحي خلال فترة الحج

1-التخوف من انتشار الأمراض

2-إجراءات الوقاية والبعثات الصحية

أولاً: وسائل النقل والمواصلات

1- وسائل النقل المعتمدة من طرف الحاج الجزائري

يكتسي موضوع النقل في رحلة الحج أهمية بالغة بما أن هذه الفريضة كانت ولا تزال منوطة بشكل مباشر وعضوي بالانتقال عبر الحدود وقطع مئات الكيلومترات لتأدية المناسك، وبذلك فهي الفريضة الوحيدة التي تشترط الحركة من مكان إلى آخر، وما لهذه الحركة من مشاقة وصعاب، قصد الوصول إلى أقدس البقاع لتأدية المناسك.

فالحج يتعلق بأحد أركان الإسلام وكان لموسم الحج أثر كبير على مصير الرسالة الإسلامية، وعندما تحل أشهر الحج يبدأ الحجاج في أنحاء العالم الإسلامي بالتجهيز والاستعداد لموسم الحج[1]، قوله تعالى: " وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ"[2].

وكان الحاج مضطرا في هذه الرحلة إلى اختيار وسائل النقل حسب إمكانياته المادية والبدنية، ولما كان السفر صعبا والطريق غير مضمون فقد جرت العادة أن يودع الحاج أهله وداع من لا يرجى رجوعه، وكان الطريق البري عبر القوافل هو الطريق المعتاد عند الكثير من الجزائريين قبل الاحتلال، لكن الوفد الرسمي العثماني الذي كان يذهب بحرا بقيادة " البيت ملجي "*، والذي يتولى حمل الصرة**وتسليمها لأمير الحجاز، وكانت تكرى من اجل ذلك سفنا قد تكون سفنا لدول أوربية فرنسية في الغالب أو انجليزية...، أو يتم الركوب بحرا إلى الإسكندرية انطلاقا من المغرب أو تونس. [3]

---

[1] مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، تصدر عن جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي، الجزائر، العدد الأول، ص 232

[2] القرآن الكريم، سورة الحج، الآية 27

*الرئيس المنتخب أو المشرف المعين على قافلة الحج المتوجهة من استانبول إلى مكة المكرمة، نقلا عن سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، سلسلة الثالثة(43)،الرياض،2000م،ص37

**معناها اللغوي ما يصر على الشيء، وهي كلمة عربية تعني كيس النقود.

[3] هواري قبائلي، المرجع السابق، ص 172

كما حدث مع الأمير عبد القادر في رحلته إلى الحج برفقة والده الشيخ محي الدين، بعدما دخل تونس برا ثم ركب سفينة أوربية حيث يشير إلى أن الربان كان مسيحي وقد وصل الإسكندرية، في رحلة استغرقت تسعة عشر يوما[1]" ذكر في جوابه الناحية الجغرافية التي كانت تمر عليها قوافل الحجاج براً، ولم يسبق لغيره ذكرها، حيث أنها تختلف عن الطريق المعهود الذي كان يمر عليه المسافر، وخصوصاً بين وهران وتونس كما أفادنا أن والده ذهب رفقة الوفد الرسمي بحراً من وهران إلى الإسكندرية بعد اجتماعه بهم في تونس[1].

وبمجيء الاحتلال الفرنسي انقطع تنظيم الحج بشكل رسمي وانقطع معه الطريق البحري، وهذا لم يمنع استمرار قوافل الحجيج برا انطلاقا من الطريق الصحراوي، الذي لم ينقطع حتى مطلع القرن العشرين، وكان الطريق الصحراوي أكثر مشقة بعدما أصبحت القوافل تتوغل أكثر جنوبا لتفادي السلطة الاستعمارية، غير أن هذه الرحلة البرية لم تنقطع عن الجزائر حتى بدايات القرن العشرين، لكن طرق التقليدية لركبان الحجيج تغيرت بعدما كانت تدخل عبر تونس أو ليبيا ، وحتى الركب المغربي اتخذ طريق مغايرا انطلاقا من ميناء السويرة ثم طنجة وتطوان على متن بواخر أوربية، وقد تلاشت الوحدة الاجتماعية والاقتصادية وحتى الرمزية بين الأقطار المغاربة التي كانت تمثلها هذه القوافل، تفرقت وانتفت بسبب دخول النقل البحري من بابه الواسع[2].

2. ظروف نقل حجاج الجزائر:

استدركت فرنسا الأمور بعدما وعت الأبعاد الروحية والدعائية لهذه الرحلة فحاولت تنظيم شؤون الحج، وبعد كل التنظيمات الأولى التي قامت بها فرنسا لتسيير شؤون الحج والتي كانت خلال سنوات، (1844م إلى غاية 1886م..) حرصت الإدارة الاستعمارية إلى نقل من تتأكد من ولائهم لها من الأعيان وشيوخ الزوايا مجانا، في سفن مخصصة لذلك لأداء فريضة الحج، وبذلك هيمن النقل البحري طوال تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر، وارتبط ارتباطا عضويا بالرحلة إلى الحج.

[1] المهدي البوعبدلي، الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، جمع وإعداد: عبد الرحمن دويب، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، المجلد4، ط1، الجزائر، 2013، ص 15

[2] إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، د ط، 1978م، ص543

وفي عام 1894م صدر القرار التأسيسي المنظم لشؤون الحج وذلك في تاريخ 10 ديسمبر من نفس السنة من طرف الحاكم العام Jules kamboun"جول كامبون " والذي يقضي بموجبه تحسين ظروف الرحلة.

كما فرض على السفن استقبال لجنة خاصة يشكلها المحافظ، تراقب مدى جهوزية السفينة لنقل الحجاج التي كان من أفرادها أعضاء من جمعية الحبوس بعد تأسيسها سنة 1917م، لكن الحاج الجزائري ظل يشتكي من ظروف النقل.[1]

لقد كانت معظم السفن المخصصة للحجيج عبارة عن سفن شحن قديمة حولت إلى سفن لنقل الحجاج للمناسبة فقط، وهذا لجشع وطمع شركات النقل، فالسفينة L'aMiral,jacobson مثلا كانت سفينة لنقل الفحم، والسفينة (بروتاني) Bretagne صممت لنقل المعادن، وهذه السفينة Nivernais (نفرنيس) كانت مخصصة لنقل أبقار المغرب ومواشي الجزائر، بحيث كانت مهمة هذه السفن حمل اكبر قدر ممكن من المسافرين، كما عبر عليه الشيخ " الطيب المهاجي " حيث قال:" لقد رأيت بعين راسي المركب البحري الذي اقل الحجاج إلى جدة، وقد افرغ حمولته وهي كميات من أطنان الحنطة، ثم غسل بماء البحر، وبقيت حبوب الحنطة في شقوق المركب...ولا تسال عن رداءة الطعام الذي يقدم للركاب والذي اخذ منهم ثمنه مقدما قبل الركوب كاللحم المثلج المتغير الرائحة والطعم.[2]

وبعد هذه المرحلة توالت سنوات المنع حتى سنة 1913م، ثم دخل العالم أتون الحرب العالمية وانقطعت الاتصالات والمواصلات وحدثت اضطرابات في النقل البحري خاصة سنة 1916م-1917م، وزاد في هذه الأزمة قوانين الاحتكار[3].

---

[1] هواري قبائلي ، المرجع السابق ، ص 180

[2] الطيب المهاجي، أنفس الذخائر وأطيب المآثر، مجموع الرحلات، دار المعرفة الدولية،د ط، الجزائر،2011م،ص79

[3] نفس المرجع ، ص183

وابتداء من سنة 1919م تمت العودة إلى التنظيم الرسمي لفريضة الحج وتوكيل أمور تنظيم الحج إلى جمعية حبوس الحرمين برئاسة قدور بن غبريط.

لكن حتى نهاية العشرينات لم يكن هناك تنظيم للحج بسبب مشكلة النقل، وبذلك فشلت الجمعية سنتي 1921م و1922م في التنظيم العادي للحج بسبب قلة المسجلين للذهاب إلى الحج*.

لكن كانت الأمور في الحجاز صعبة بعد تردي الأوضاع الأمنية وقلة وسائل النقل وتمرد القبائل المحتكرة لتجارة القوافل، وكان القنصل الفرنسي في جدة " كراجوسكي"krajewsky ذكر أن انعدام الأمن بين مكة والمدينة كان بفعل قطع الطريق من طرف القبائل المعادية للملك، ووقوع سرقات ونهب باستعمال التهديد والإكراه.

في وقت تواصلت فيه القوانين المنظمة لشروط الإبحار، حيث صدر قانون 1929م الذي اشترط أن تكون نسبة ركبان السفينة ثلاثة بالمائة على الأقل من مجمل الركاب، على أن يخضعوا بدورهم لمراقبة طبية قبل الإبحار مع الحاج، ولا يسمح لهم بالنزول في موانئ العبور، وهذا بعد توالي شكاوي الجزائريين من تصرفات ربان السفينة وجهلهم بالإسلام والمسلمين وقلة الاحترام وازدراء المسلمين.

وفي سنة 1930م صدر قانون جديد يلزم على كل سفينة استقبال لجنتين مستقلتين لتفقد ظروف النقل ومدى احترامها لاتفاقيات الصحة والملاحة الدولية، لكن هذه المراقبة كانت شكلية ومحدودة[1].

* بلغ عددهم في كل المستعمرات الفرنسية حوالي 120 حاج فقط.

[1] هواري قبائلي ، المرجع السابق، ص188

كل ذلك أدى إلى فشل جمعية حبوس الحرمين في تنظيم شؤون الحج، بعدما أثبتت عدم احترافيتها في تنظيم ونقل الحجاج، و وصل الحد بها إلى نقل الحجاج في رحلة الذهاب ثم التنصل من مسؤولية إرجاعهم في رحلة العودة، مما أدى بالإدارة الفرنسية بالتكلف برحلة العودة.

واتهمت الجمعية باحتكار تنظيم الحج وتحويل عملية نقل الحجاج إلى سلعة من السلع تنزل إلى سوق المضاربات المالية وتعتبر مورد من أهم موارد الارتزاق للكثيرين، وزاد من معاناة الجمعية المنافسة الشرسة في التنظيم للدول الأوربية الأخرى مثل ايطاليا واسبانيا التي كانت تنقل رعاياها المسلمين وتخصص لهم في هذه الفترة سفنا مجانية لنقل الحجاج.[1]

ولم تكن فترة الثلاثينات أفضل من التي سبقت وتوالت في هذه الفترة الهجمات من الصحافة الإصلاحية ضد شركات النقل البحري وأصحاب الامتياز، ولتهدئة الخواطر سمح للشيخ بن باديس يتفقد السفينة بعدما تم استقباله بترحاب من طرف صاحب السفينة، وأثنى الشيخ بدوره على لواحق السفينة من العيادة الطبية ومحلات الصلاة ووجود المأكل.[2]

لكن هذه المعاملة كانت فقط لطمأنة الشيخ بن باديس ولجنة المراقبة، وفي سنة 1938م صدرت فتوى من علماء الشام تندد بظروف نقل الحجاج من طرف الشركات صاحبة الامتياز وبذلك دعوا لمقاطعة الحج.[3]

[1] هواري قبائلي، المرجع السابق، ص190

[2] الشهاب، وداع الحجاج، العدد 147، 20 جانفي 1939

[3] البصائر، حديث الحجاج، 03 مارس 1939

ثانيا: واقع الوضع الصحي خلال فترة الحج

1. التخوف من انتشار الأمراض

لقد ارتبطت مسالة انتشار عدوى الأمراض والأوبئة ارتباطا وثيقا بمسالة الحج خاصة بعد المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر، بعدما حّمل الحاج المسؤولية الأولى في نقل الأمراض والأوبئة، وكانت القوى الاستعمارية ترى في لقاء مسلمي العالم في مواسم الحج اكبر مناسبة وسبب لانتقال العدوى والمرض، وبذلك توالت الإجراءات من طرف القوى الكبرى عبر الاتفاقيات الدولية والمعاهدات قصد محاصرة وتقييد تحركات هذا الحاج في طريقه إلى الحج وذلك بتحديد مساره بشكل دقيق، وفرض إجراءات طبية وإدارية وصولا إلى فرض تدابير الحجر الصحي بشكل إلزامي في كل الحالات سواء أعلن عن انتشار المرض والأوبئة في مواسم الوباء أو في المواسم العادية الخالية من انتشار الأمراض والأوبئة.

غير انه اجمع الكثير على أن كان فرصة لانتشار الأمراض والأوبئة وذلك في ظل غياب شروط النظافة وإجراءات الوقاية، والمؤسسات الاستشفائية في الحجاز،و كان ذلك كفيلا لتشجيع انتعاش الأوبئة بعد اختلاط الحجاج من كل الأفاق في بيت الله العتيق، ذلك الاختلاط والتلاقي كان عاملا فاعلا في انتشار الوباء، خاصة أن مسلمي شبه القارة الهندية كان في الغالب يحملون السبب المباشر في نقل عدوى الكوليرا هذا المرض الذي كانت المصالح الطبية العالمية تفترض أن مصدره الرئيسي نهر " الغانج "*[1].

هذا إلى جانب بعض الأمراض كالطاعون، الذي ظل يفتك بالبشرية جمعاء، إلى جانب الجذري، وأمراض أخرى لكن في كل التقارير الطبية المتعلقة بالحج كان التركيز على تهديد الثالوث الوبائي**، ولذلك فرضت السلطات الاستعمارية التطعيم الثلاثي ضد هذه الأمراض[2].

---

* يقع نهر الغانج في الهند

[1] هواري قبائلي، المرجع السابق، ص 401

* * (الكوليرا، الطاعون، الجذري).

لكن اللغة الترهيبية والتخويفية الصادرة عن الهيئة الدولية للصحة في ذلك الوقت، من القوى الكبرى، لم تكن تخل من تحميل موسم الحج والحجاج المسؤولية في انتشار الأوبئة ولا يخلو الأمر من عنصرية وتعصب ديني كانت تمارسه الإدارات الاستعمارية لتنفيس حقدها الديني وذلك بغية محاصرة الحج، عبر إيجاد الذرائع والأسباب الواهية لمنعه من إتمام رحلته في الظروف العادية عبر فرض قيود التطعيم، والحجر، والعزل، والدفتر الصحي*، فقد حمل سلوك الحاج سبب انتشار الوباء والأمراض، بينما اعتبرت السلطات الحجازية أن سبب انتشار الوباء راجع إلى كثرت الذنوب والخطايا، وبذلك أسست" لجنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، لكنها لم تفعل شيئاً حيال الأسباب الحقيقية كبدائية وسائل التعقيم، ولم يكن هناك مستشفى في جدة وتجهيزات حديثة أو أمصال أو أدوية...[1]

اتخذ السلطات الاستعمارية في كل مرة من المرض والوباء السبب المباشر لتبرير منعها تنظيم الحج لسنوات عديدة. و في سنة 1902م، جاءت أنباء عن انتشار وباء الكوليرا بشكل متأخر، ما أدى بوزير الداخلية بإصدار أوامر بالمنع الفوري للحج[2].

لكن الظروف الصحية المتردية في الحجاز كانت تساعد في انتشار العدوى في مواسم التقاء الحجاج، ففي موسم الحج في بعض السنوات كان يعرف انتشار رهيبا للمرض.

---

*انظر للملحق رقم (03) و (05).

[1] أيوب صبري باشا، موسوعة مرآة الحرمين الشريفين، تر: محمد صرب، دار الأفاق العربية،د ط، القاهرة ، 2004م، ،ص 114.

[2] هواري قبائلي، المرجع السابق، ص403.

و كان يؤدي إلى هلاك الآلاف من الحجاج*، ومن اجل مراقبة المرض وضعت الحكومة الفرنسية مصالح استشفائية ابتداء من سنة 1847م، والتي يتلخص عملها في جمع معلومات عن الأوبئة والأمراض ومعاينة ومراقبة الحالة الصحية للقوافل، وكذلك حركة الملاحة البحرية.

لكن هذه التدابير لم تكن تمس من بعيد ولا من قريب حركة الملاحة البحرية والتي اجمع الأطباء في تلك الفترة أنها من الأسباب الكبيرة والقوية لانتشار السريع للوباء، بتنقله مع البشر والأمتعة والسلع إلى باقي مناطق العالم، وفي وقت كانت لا تحترم فيه شركات النقل البحرية المعايير الصحية بسبب الاكتظاظ، وعدم وجود الطبيب أو عيادة على ظهر السفينة، وكذلك التجهيزات الطبية ووسائل النجدة وظروف الملاحة البحرية وطبيعة المأكل والمشرب، والتهوية والمراخيص كلها ظروف كان يعتبرها الطبيب الفرنسي بوريل" Borel " سببا رئيسيا لانتشار وانتقال السريع للوباء، أكثر من عامل الحج.[1]

كما حمل سلوك الحاج سبب انتشار الوباء والأمراض ، فيما مضى كان الحجاج الذين يأتون مع المحمل الشامي، ينصبون خيامهم بجانب الآبار التي في طريق العمرة، وكانوا يتركون في الميدان مخلفات الأغنام التي يذبحونها مكشوفة، كما كانوا يتركون بين الخيام جيف الإبل والخيول التي تنفق من المرض والتعب في أثناء الطريق.[2]

وقد عمدت السلطات الاستعمارية للحد من انتشار الأمراض إلى تأطير الحجاج من جهة، بطرق مختلفة ومتناقضة راعت فيها كل قوى استعمارية مصالحها قبل أي شيء آخر حيث اتخذت بريطانيا تدابير وقائية محلية، لكن فرنسا وباقي الدول الأوربية اتبعت أسلوب الحجر

*مرض الكوليرا لوحده ضرب الحجاز سبعة وعشرين مرة من 1831م إلى 1912م، من إجمالي الأوبئة التي ضربت المنطقة في نفس الفترة والتي كانت مثلا (الطاعون، الكوليرا، الجذري بالخصوص).

[1] Borel frederic.cholera et peste dans le pèlerinage musulmans 1860-1903

نقلا عن هواري قبائلي ، نفس المرجع،ص 404

[2] أيوب صبري باشا، المرجع السابق،ص 114

الصحي خاصة في الموانئ، وسبب هذا الاختلاف راجع لمصالح كل دولة والتي كانت فوق كل اعتبار.[1]

إلا أن كل هذه التدابير لم تكن في المستوى المطلوب فقد تواصل انتشار الأوبئة بعد هدوء لسنوات، حيث تم تسجيل انتشار الطاعون والجذري الحجاز سنة 1905م 1906م، كما انتشرت بين الحجاج حالات الرشح والجذري وأمراض الالتهاب الرئوي (pneumonie)، والتهاب الأمعاء (Entérite)مما سهل على السلطات الاستعمارية في منعها للحج لسنة 1908م، وتواصل انتشار الوباء سنوات 1910م،1911م،1912م، وتوالت التدابير الصحية والوقائية سنة 1913م إلى غاية سنة 1917م، ومنذ تلك الفترة لم تنظم فرنسا الحج بشكل رسمي لظروف الحرب العالمية والظروف التي تلت نهاية الحرب حتى نهاية العشرينات، حيث في سنة 1929م، الذي لم يشهد انتشار حالات الوباء وكذا السنة الموالية 1930م، ويبدو أن الأمور تحسنت أكثر، وفي سنة 1931م، مُنع الحج على الجزائريين بسبب انتشار وباء الطاعون في موانئ المتوسط، لكن لم يكن ذلك السبب الحقيقي من وراء المنع المتكرر بل كانت له مبررات سياسية أخرى.[2]

[1] هواري قبائلي، المرجع السابق، ص413

[2] المرجع نفسه، ص 413

2. إجراءات الوقاية والبعثات الصحية:

أمام خطر انتشار الأمراض والأوبئة والتي حمل الشرق أو الضفة الشرقية للبحر المتوسط المسؤولية الأولى على انتشارها، وبالخصوص الحجاز أثناء مواسم الحج، ارتأت الدول العظمى آنذاك اتخاذ السبل والحلول لمحاصرة المرض، وقد تطرقنا إلى مختلف المعاهدات والتوصيات والتدابير الوقائية التي اختلفت من قوة إلى أخرى حسب مصالح كل طرف، لكن أجمعت كل هذه القوى الفاعلة في العلاقات الدولية في تلك الفترة، على وجوب توحيد الجهود الدولية لمحاصرة المرض، ولا يكون ذلك إلا بالاعتماد وتعميم تدابير الحجر الصحي، كأحسن وسيلة لمنع انتشار الأوبئة والأمراض.[1]

وكان العمل بالمحاجر قديم جدا، وهو إجراء يمتد إلى فترة القرون الوسطى حتى أن هناك أحاديث نبوية في هذا الشأن فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم في عدد من الأحاديث، مبادئ الحجر الصحي، بأوضح بيان، فمنع الناس من الدخول إلى البلدة المصابة بالطاعون، ومنع كذلك أهل تلك البلدة من الخروج منها، بل جعل ذلك كالفرار من الزحف الذي هو من كبائر الذنوب، وجعل للصابر فيها اجر الشهيد. قال: عبد الرحمن بن عوف، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه[2]، وإذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ". وروى الإمام احمد بن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تفنى أمتي إلا بالطعن والطاعون، فقلت: يا رسول الله هذا الطعن لقد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: غدة كغدة البعير، المقيم بها كالشهيد، والفار منها كالفار من الزحف، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الفار من الطاعون كالفار من الزحف، والصابر فيه كالصابر في الزحف."[3] رواه أحمد.

---

[1] هواري قبائلي، المرجع السابق، ص424

[2] محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، صحيح البخاري، تح:محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، ج3، دمشق، 1422هـ، ص 64

[3] المصدر نفسه، ص65

.

وكانت التدابير الوقائية تهدف للحجر على المرض في وقت انتشاره وفي عين المكان، لكن الأمر تطور بعد ذلك إلى تأسيس المحاجر على المرافئ والموانئ والجزر والحدود، تستقبل الداخلين في البلد، الذين يراقبون هناك من طرف أطباء حتى يتم التأكد من سلامتهم أو تعافيهم وقد كان نظام الحجر موجود لدى المسلمين منذ بداية الإسلام اقره الرسول صلى الله عليه وسلم وأكده الصحابة من بعده في فهم صحيح وشرعي للقدر، وقد خصصت مؤسسات قائمة بذاتها، مهمتها إيواء المرضى وعزلهم عن الأصحاء في محاولة لمنع انتشار الوباء[1].

و أول هذه الهيئات المراقبة الصحية ظهرت في ايطاليا حيث من هناك ظهرت كلمة الايطالية ثم حولت إلى كلمة Lazaret* بمعنى المحجر المشهور والمتداولة. وتأسس أول محجر فرنسي بمرسيليا سنة 1526م، إلا أن المحاجر لم تكن فقط على ضفاف ومرافئ البحر المتوسط، بل كذلك على طول سواحل المحيط الأطلسي، لكن كلها دخلت مرحلة الانحطاط بعد الحرب العالمية الأولى، بفضل الاكتشافات الطبية الحديثة واختفاء الوباء في عدة مناطق[2].

أما من جهة البحر الأحمر فقد انشأ محجر الطور** سنة 1877م، وهو أشهر المحاجر في تلك الفترة، وأكثرها استقبالا للمسافرين وبالخصوص من مناطق جنوب البحر الأحمر وشمال إفريقيا، وقد كان يقيد الجزائريين حيث يستقبل الحاج الجزائري ثم تنزع منه ملابسه ومتاعه الذي يطرح في حاضنات تعقيم، ثم يطهر الحاج بالرش بماء البحر، وفي مواسم انتشار الأوبئة يتم إتلاف وحرق كل بضائع ومتاع الحاج،و يقرر أطباء المحجر بعد معاينة الحاج إذا ما يتم تحويله إلى مستشفى المحجر، أو يبقى في المخيمات؟[3].

---

[1] عبد القادر قوبع، نظرة علماء القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين للداء والداء في بلاد المغرب العربي، ع 14 جوان 2016، مجلة أنسنة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجلفة، ص ص 164 170

[2] هواري قبائلي، المرجع السابق، ص 429

*كانت lazaret عبارة عن جزيرة صغيرة قرب مدينة البندقية مسماة santa maria de lazaret te تأسس بها أول محجر سنة 1423م هو الأول في أوربا كان يحجر فيه المصابون بالطاعون، نقلا عن هواري قبائلي، المرجع نفسه، ص 429

**محجر الطور يقع على بعد 250 كلم من قناة السويس في أقصى جنوب شبه الجزيرة سيناء.

[3] نفس المرجع ، ص430

وكانت السفن بدورها تتعرض لعملية التعقيم، كما يراقب الطاقم مراقبة طبية، لكن يتم الحجر عليهم في سفنهم. بعدما توضع الحراسة على كل سفينة لمراقبة إجراءات الحجر.

وقد كانت مدة الحجر تطول وتقصر حسب الحالة الصحية التي قد تقتضي مدة أطول للتأكد من خلو الحاج من الأمراض المعدية للسماح له في النهاية بالخروج من المحجر، وقد تتجاوز هذه المدة ما نص عليه القانون، حيث سنة 1922 مكثت سفينة تحمل حجاجا جزائريين في محجر الطور حوالي 18 يوم أي ستة مرات المدة القانونية.

وكانت الأمور لا تخلو من بعض الاعتبارات النفعية حيث الدخول إلى المحاجر لم يكن بالمجان، وكل ما زاد مكوث الحاج هناك كل ما زادت نفقته، حيث كانت تدفع هذه الرسوم حتى قبل موعد رحلته في مجمل مصاريف الرحلة، وفي شهادة على الأوضاع المزرية التي كان يعيشها الحجاج في الطور ذكر الحسن بن محمد العسال في رحلته وصفا دقيقا لحال هذا المحجر فقال: " حتى وصلنا جبل الطور، ثم اخبرونا أن نزولنا من{ البابور } لا يكون إلا بعد مضي سبعة أيام، وبقى الحجاج بعضهم فوق بعض في حالة يرثى لها، من شدة الضيق، وتجيء لنا مرة في اليوم { فلوكة } حاملة مئونة رديئة بثمن غال لا يشتري الإنسان منه ما يلزم لضرورته التي لا بد منها،...هذا بعض ما يقاسيه الحاج في محجر الطور...وكانت إقامتنا على هذه الحالة التي تنفطر منها القلوب عشرين يوما مابين البر والبحر".[1]

إلا أنه مع تطور العلم وبفضل الاكتشافات الطبية وظهور اللقاحات الطبية الجديدة والفعالة، وكذلك سرعة التبادلات والانتقالات وضرورتها ودخول النقل الجوي في الخدمة، ساهم كل ذلك في تدهور أهمية وقيمة وفعالية المحاجر، وبدا ذلك بعد الحرب العالمية الأولى لينتهي العمل بشكل إجباري بنظام المحاجر في سنة 1940م.[2]

[1] الحسن بن محمد العسال، الرحلة الطنجاوية الممزوجة بالمناسك المالكية، تح: محمد علي فهيم بيومي، مكتبة زهراء، الشرق، القاهرة، 2009م،ص ص 133 134

[2] هواري قبائلي، المرجع السابق، ص 438

. البعثات الصحية:

ظل الهاجس الصحي وخوف انتقال العدوى والوباء القادم من الشرق مع قوافل الحجاج الشغل الشاغل للإدارة الاستعمارية، ولذلك ظلت تتذرع دائما بالأوضاع الصحية لمنع تنظيم رحلة الحج ، ومن اجل ذلك قررت الإدارة الاستعمارية وجوب التأطير الصحي للبعثة الجزائرية إلى الحج، بعدما قررت وجوب تخصيص مع بعثة الحجاج بعثة صحية مكونة من ممرضين وأطباء وممرضات وقابلات، بأعداد تقل أو تكثر مع الوقت بموجب قرارات وقوانين محددة، وهذا بدون ذكر الأطباء المرافقين للحجاج على ظهر السفينة الذين لم يكن لهم الحق في مرافقة البعثة في الحجاز ويكمن دورهم في إسعاف والكشف عن المرضى ولكن في رحلة الذهاب والإياب فقط.

وقد وضعت فرنسا منذ سنة 1848م أطباء ومراقبين، تمثل دورها في إعداد

تقارير حول الحالة الصحية في تلك المناطق، وأحوال القوافل وحركتها، والنقل البحري، وفي سنة 1890م تم تعيين طبيب من الأهالي، يرافق الحجاج إلى البقاع المقدسة، وجرى مباشرة بعدها تحديد مهام الطبيب المرافق للبعثة، والتحذير من التخاذل في أدائها مهما كانت الاعتبارات، ويتمثل دوره في إحضار القنصلية " الفرنسية في جدة" حول الوضع الصحي، وعدد الموتى وهوياتهم وماذا تركوا بعدهم، من متاع، وأموال،...الخ[1].

وكان التشديد على الدور المهني للطبيب عبر منعه من أداء واجباته، أدى بالإدارة الاستعمارية على منعه لمرافقة الحجاج إلى الحرمين الشريفين، وإلزامه بالبقاء في مدينة جدة بعد النزول مباشرة، لكن ذلك كان يحرم الحجاج من العناية الصحية والرعاية الطبية في أصعب الظروف أثناء تأديتهم المناسك،أما الطبيب الجزائري المسلم، فقد كان موضع ثقة من الحجاج، أكثر من الطبيب الأوربي، وكان يتقاضى أجره من ميزانية الحكومة العامة وليس من شركات النقل، إلا أن منصب الطبيب الجزائري الغي ابتداء من سنة 1905م، وبقية البعثة الطبية أوربية بحثه، وهذا ما حرم البعثة الجزائرية إلى الحج من التأطير الطبي والصحي طول هذه الفترة حتى سنة 1929م، بحكم أن الطبيب الأوربي لم يكن يسمح له بمرافقة الحجاج إلى الحرمين وانتظار

[1] هواري قبائلي، المرجع السابق، ص 452

رحلة العودة في جدة، فبعد تأسيس جمعية حبوس الحرمين سنة 1920م تم تعيين أطباء جزائريين وتونسيين بقرار من الحاكم العام في الجزائر أو باي تونس، لمرافقة الحجاج في رحلتهم ذهابا وإيابا، وأثناء إقامتهم في الحرمين، كما حدد قانون 10 فيفري 1930م عددهم*، على أن يكون الكشف عن الحجاج المرضى بشكل مجاني كما أوصى قرار 15 جويلية 1937م على أن يكون الطبيب الجزائري المبعث بصحة جيدة ويتجاوز الخمسين سنة.[1]

وكانت البعثة الطبية الجزائرية تعاني في الحجاز من نقص كبير وفادح لكل المستلزمات الضرورية من أدوية ومعدات، ما سهل بعد ذلك اتهامهم بالتقصير واللامبالاة، و ضلوا يطالبون بتوفير خيمة لاستقبال المرضى، لكن هذه التوصيات ظلت مجرد أماني حتى سنة 1939م خصصت لهم سيارة إسعاف، كما تطور التجهيز الطبي بعدما ، وتطورت مستشفيات مكة وجدة وبعد تزويدها بتجهيزات حديثة ومخابر وأجهزة تصوير بالأشعة بكادر طبي كفؤ، مكون من أطباء من الشام.

أما فيما يخص تنظيم نظام التلقيح الخاص بالحجاج، والتي كانت ثلاثية خاصة بأمراض الطاعون الجذري الكوليرا، وكانت تمارس من طرف جهات تحددها الإدارة الاستعمارية، وذلك في مرافئ الإقلاع وعلى ظهر السفينة، فقد تطورت الأمور بعد سنة 1931م بتخصيص أطباء معتمدين بالتكفل بهذه اللقاحات بعدما كانت الأمور تتم من طرف مصالح الصحة البحرية[2].

* بحوالي طبيب جزائري لكل 100 حاج

[1] الحسن بن محمد العسال، المصدر السابق، ص 135.

[2] المرجع نفسه، ص 453

لقد أرقت مسالة نقل الحجاج الإدارة الاستعمارية، في وقت اختفى فيه ركب الحجاج والقوافل، ولم يبقى من وسيلة سريعة سوى السفن، هذه الأخيرة لاقت الكثير من الشكاوى من طرف الجزائريين، حيث استعملت السلطات الاستعمارية سفنا غير لائقة وليست مناسبة لنقل الحجاج، عبرت عليها كل من السفن: (.nivernais. Bretagne، Lamiral)

أما من الجانب الصحي فقد حملت السلطات الاستعمارية الحاج السبب الأول في انتشار الأمراض وحامل الوباء كالطاعون والجذري...، وكان ذلك ذريعة لمنع الحج لسنوات طويلة، وقد عقدت المجالس اتفاقيات دولية للصحة العالمية من اجل محاصرة الحاج ووضع قيود أمامه لمنعه من أداء فريضة الحج، حيث تم إقرار شروط الحجر، التي مثلت أصعب مرحلة من مراحل رحلة الحج.